ابن خلدون وعلم صناعة الإعراب (النحو)

د.سعيد بوخاوش

جامعة البليدة 2

ملخص:

النحو في الأصل وسيلة لانتحاء سمـــت كـلام العرب ، وليلحق من ليس منهم بهم ،ولكنه في عصر ابن خلدون صار غاية لذاته ، وهذا ما جعله يؤكد أن اكتساب اللغة يكون بالاستعمال و الممارسة ، ويرفض ابتـداء أن يكــون للنحو [القواعد الصناعية] صلة بالكلام ، ويدلل لذلك من خلال رصده لعوائق ناجمة تاريخيا عن تطور فن النحو من البساطة إلى التعقيد . فمـا هو رأي ابن خلدون في هذه القضية ؟

Résumé :

La grammaire est à la base un moyen pour acquérir les aspects du parler arabe et pour le faire parvenir à ceux qui ne le côtoient pas. Or, la grammaire à l'époque d'Ibn Khaldounétait devenue une fin en soi. C'est ce qui indique que l'apprentissage de la langue dépend davantage de l'usage et de la pratique que des règles grammaticales [règles somme toute artificielles] sans relation naturelle avec le parler.La preuve en est cette complexification progressive qu'a connue l'évolution de la grammaire au cours de son histoire.Qu'en est-il du point de vue Ibn Khaldoun sur cette question ?.

توطئة :

رأى ابن خلدون أن هناك عوائق لحصول المتعلم على الملكة اللغوية عن طريق القواعد النحوية ، فلقد تأكد لديه أن المتعلم للنحو بعد سنوات طويلة من هذا التعليم ، لا يعتدل لسانه ولا يستقيم بيانه ، وهذا أثار لديه الغيظ والأسف لشدة ما يعانيه الطالب والمعلم من مشقة ، وقلة جدوى ما يحصله من نتائج . وحاول استقراء الأسباب التي أدت إلى ذلك ، وتقرر لديه أن الملكة اللسانية غير صناعة العربية ، ويدلل ذلك من خلال رصده لعوائق ناجمة تاريخيا عن تطور فن النحو من البساطة إلى التعقيد ،فالنحو في الأصل وسيلة لانتحاء سمت كلام العرب، وليلحق من ليس منهم بهم [1]،ولكنه في عصر ابن خلدون صار غاية لذاته ، وهذا ما جعله يؤكد " أن الملكة اللسانية تكونها يكون بالممارسة ، ويرفض ابتداء أن يكون للنحو [القواعد الصناعية] صلة بالكلام " [2] ، لما علقت به من صعوبات عديدة تصد المستعمل للغة عن الحذق فيها .

النحو عند ابن خلدون و اكتساب اللغة :

للنحو أهمية بالغة في الفكر اللغوي الخلدوني ، لكن هذه العناية بالنحو منه لها توجيه علمي خاص ، فهو يفرق " بين تدريس اللغة ودراسة اللغة " ، فالنحو عنده أساس الدراسات اللغوية ، لكن قوانينه ليست غاية ولا وسيلة لاكتساب اللغة . وهنا يحق لنا أن نواجه أنفسنا بهذا السؤال ، إلى أي حد يمكن اعتبار النحو وسيلة لامتلاك اللغة ؟ أو ما هي العلاقة بين قوانين النحو والملكة اللسانية ؟

يرى العديد من العلماء أن الغاية من النحو وتدريسه ، هو إقامة اللسان وتجنب اللحن في الكلام ، قراءة أو تحدثا أو كتابة [3]، فيعتبرونه سبيل لامتلاك اللغة الصحيحة ، وهذا ما يمكن أن نستخلصه من خلال تعاريفاتهم للنحو مثلما نرى عند الزمخشري ، وكذلك ابن جني في الخصائص ، الذي يعتبر النحو : "

انتحاء سمت كلام العرب ، في تصرفه من إعراب وغيره .. ، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة "[4] .

لكن ، نجد في مقابل هؤلاء من العلماء ـ في التقديم والحديث ـ من تعرض لنقض النحو العربي [5] ، وحجتهم الواقع اللغوي المعيش ، فنحن نعلم الطالب النحو سنوات طويلة ، و لا يستقيم لسانه . ويخلصون من ذلك إلى نتيجة ، يرونها بديهية هي أن " صعوبة النحو لا تعين على عصمة اللسان من اللحن " [6] ويؤكدون هذه النتيجة واقعيا ، بوجود نحاة يلحنون في حديثهم ،وقد بسطت القول في أقوال هؤلاء سابقا.

بينما نجد لابن خلدون رأيا وسطا في المسألة ، بتفريقه بين دراسة اللغة وتدريس اللغة ، بين النحو التخصصي والنحو الوظيفي ، فهو يجعل النحو في مقدمة العلوم العربية (دراسة اللغة) ، ويرى أن نشأته كانت لغايتين ، " إرادة الفهم ومحاربة اللحن ولا يمكن أن يستقل أحدهما عن الآخر " [7] ، لكن غاية تحصيله ليست اكتساب الملكة اللغوية ؛ أي لا يمكن اعتماده كوسيلة أساسية لها ، لا سيما والحالة التي عليها الآن ؛ ذلك أنه ، إذا تأمل الباحث اليوم المكتبة النحوية و الصرفية على حد سواء ، كتب علم صناعة العربية ـ كما يسميه ابن خلدون ـ فإنه يصاب بالذهول لكثرتها .. قال ابن خلدون : " وبالجملة فالتأليف في هذا الفن أكثر من أن تحصى [8] ، أو يحاط بها ، وطرق التعليم فيها مختلفة ، فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين ، والكوفيون و البصريون والبغداديون والأندلسيون مختلفة طرائقهم كذلك "[9].

فلما رأى ابن خلدون هذا الكم الهائل من التآليف المطولة والمختصرة في هذا الفن ، وتعدد مذاهبه ومدارسه ، وتباين طرق تعليمة ... وتبعا لما استقر عنده من كون الملكة اللسانية غير القوانين العلمية ، وذلك من خلال رصده

لتاريخ اللغة ، فقد كانت ملكــة اللسان قبل نشأة النحو و العلوم العربية؛ أي أن العربي تكلم اللغة سليقة قبل أن يقعِّد لهــا .. لهذه الأسباب و غيرها أدرك ابن خلدون أن النحو ليس هو الكلام [10] وإن كان ضروريا لإصلاحه . فمهمة النحو [11] تكمن في دراسة اللغة [12]، فهو وسيلة لا غاية !

ملكة اللغة غير صناعة اللغة :

تبين لنا فيما سبق موقف ابن خلدون من النحو ، ونحاول الآن توضيح رأي ابن خلدون فيما يتعلق باكتساب الملكة اللغوية من طريق القوانين النحوية .

يرى ابن خلدون أن ملكة اللسان مقابلة لعلم اللسان ، وهذا ما دعاه إلى القول : " بـأن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم "[13] ، ولا شـك أن هـذا موقف جريء نظرا لأوان قوله ، إذ كل المعلمين معتقدون أن قوانين العربية غاية في حـد ذاتها ، ناهيك عن كونها وسيلة ! فهذا أمر مسلم به لديهم . أما ابن خلدون فيجزم برفض النحو كطريقة لامتلاك اللغة ، لا سيما بالحالة التي وصل إليها في عصره .. فاللغة ملكــة كباقي الملكات الصناعية ، وهي مستغنية عن النحو جملة .

إن نظرة ابن خلدون الاجتماعية إلى اللغة جعلته قبل كل شيء يثور على النظـرة الداخلية التقنية التي تنصرف إلى معالجة اللغة بوضعها في قوالب القواعد الثابتة الجـامدة ، ولا تعالجها في المحيط الاجتماعي الواسع المتحول المتغير على الدوام . ولذا نجد أن خلافـه شديد مع النحاة ، ومنشأ هذا الخلاف كما سيتبين لاحقا ، هو أن النحويين في عصــره اعتبروا اللغة كبعض ظواهر الطبيعية الجامدة كالجبال والصخور وليست ظــاهرة إنسـانية تتغير بنياتها وأساليبها بتغير الحياة الإنسانية وأوضاع الجماعات البشرية المتجددة.

ونحن لا مناص لنا من تتبع هذه المعركة بشيء من التفصيل ، لأن نهايتها ستكون على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لميدان البحث في اللغة .

وما يتبين لنا في هذا المجال أن ابن خلدون كعادته في استخلاص القوانين يدلل لها عقلا ، وواقعا ، وتجريبا ، أما من الناحية العقلية ، فقد بين الفرق بين العلم النظري و الممارسة العلمية ، بين الملكة وقوانين الملكة ، ومثل لذلك تمثيلا واقعيا ؛ أما من الناحية التجريبية ، فإنه تتبع واقع التعليم في عصره في الأمصار المختلفة ، وكيف تدرس فيها علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة وغيرها ، وكيف أدى اعتمادهم على كتب المتأخرين من المطولات والمختصرات إلى عدم الشعور بالملكة اللسانية ، والبعد عن الذوق العربي نطقا وكتابة .

- **الدليل العقلي :**

بين ابن خلدون أن للملكات خصائص معينة ينبغي مراعاتها فترة الاكتساب ،وأن هذه الملكات ليست قوانين علمية نظرية جاهزة ، والملكة اللغوية لا تخرج عن هذا النسق ، فهي لا تكتسب من قوانين صناعة العربية بصفة مباشرة. " والسبب في ذلك أن الصناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة ، **فهو علم بكيفية لا نفس كيفية** ، فليست نفس الملكة ، وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا " [14]، فهو بهذا يفرق بين **معرفتين :**

المعرفة العلمية و المعرفة العملية ، أو بين العلم النظري و الممارسة التطبيقية .

ولتوضيح فكرته مثل لنا بمن يجيد صنعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا ، كمن يجيد علم الخياطة ولا يمارسها عملا ، أو من يجيد علم النجارة ولا يقدر على ممارستها ، فإذا سألته عنها شرحها لك خطوة خطوة ، وإذا طالبته بتنفيذ ما شرح أو شيء منه لم يحكمه ، وفي هذا يقول ابن خلدون : " .. لو سئل عالم بالنجارة عن تفصيل الخشب ، فيقول : " هو أن تضع المنشار على رأس الخشب ،

وتمسك بطرفه ، وآخر قُبالتك ممسكا بطرفه الآخر ، و تتعاقبان بينكما ، وأطرافه المدرسة المحددة تقطع ما مرت عليه ذاهبة وجائية ، إلى أن ينتهي إلى آخر الخشب وهو لو طولب بهذا العمل أو شيء منه لم يحكمه "[15].

وهذا المثال يقيس عليه قوانين الإعراب ، فهي تعطي علم اللسان صناعة ، ولا تعطيه ملكة . فهو يخلص إلى أن قوانين الإعراب علم بكيفية الكلام ، وليست هي نفسها الكلام "**فهو علم بكيفية لا نفس كيفية**".

- الدليل الواقعي :

ويؤكد هذا الدليل العقلي واقعيا ، بكون كثير ممن درسوا النحو وتعمقوا في أصوله وفروعه ، وأفنوا أعمارهم في البحث عن علله ومشاكله وقوانينه ، ولم يخالطوا كلام العرب عامة ، لا يستطيعون التعبير اللغوي الصحيح ، ذلك أن " النحوي " ، هو الذي يملك معارف نحوية غزيرة ، و ليس المراد منه الشخص القادر على تطبيق هذه المعارف ، لأن المعرفة لا تفضي إلى المهارة بالضرورة ، فهما شيئان منفصلان يحتاج كل منهما إلى عمل مستقل ... فإذا كنا نقصد تحصيل الملكة اللسانية كنتيجة لتعلم النحو : ووجدنا أن من كبار النحاة من لم يمتلك اللغة وأخفق في تقويم لسانه [16] ،فلا غرابة أن نقول بسقوط الأصل ، لأن سقوط النتيجة قد يكون نابعا من سقوط الأصل أو وهنه . وفي هذا يقول ابن خلدون : " ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة ، والمهرة في صناعة العربية ، المحيطين علما بتلك القوانين ، إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته ، أو شكوى ظلامه ، أو قصد من مقصود ، أخطأ فيها عن الصواب ، وأكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك ، والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي "[17].

ونجد في الواقع أيضا ـ بالمقابل ـ الكثير ممن ربوا ألسنتهم على كلام العـرب نظمـا ونثرا ، وأجادوا تحصيل الملكة اللغوية ، يعبرون عما يريدون بطلاقة وسلاسة ويسـر ، وإن لم يكن لهم تعمق بالنحو وقضاياه . وأدل من ذلك ، العربي القديم الذي لم يدرك صناعـة النحو جملة ، فلا عرف الفاعل ولا المفعول ، ولا العامل ، ولا العلل ، ولا غيرهـا مـن أبواب النحو وقضاياه ، بل نشأ في بيئة عربية ، حصل منها اللغة كملكة . وفي هـذا يقـول ابن خلدون : " وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ، ويجيد الفنين المنظوم والمنثور ، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ، ولا المرفوع من المجرور ، ولا شيئا من قوانـين صناعة العربية ، فمن هذا تعلَم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية ، وأنها مستغنية عنـها بالجملة"[18] .

- الدليل التجريبي :

أما من الناحية التجريبية ، فقد تتبع واقع تعليم علوم العربية ـ بما فيـها النحـو ـ في الأمصار المختلفة، ورصد تأثيره على تحصيل الملكة اللغوية .

فأهل إفريقيا والمغرب ، اتخذوا هذه العلوم كقوانين نظرية ، جدلية ، غاية في التحصيـل ، كما بالغوا في الاعتناء بالتعريفات والتفريعات والمسائل المتشعبة ، دون أن يتمرسوا علـى الكلام عملا واستعمالا ، أو يخالطوا كلام العرب فهما وحفظا وإنشاء .. يقـول ابـن خلدون : " وأما أهل المغرب وإفريقيا وغيرهم، فأجروا صناعة العربية مجـرى العلـوم ، وقطعوا النظر عن الفقه في تركيب كلام العرب إلا أن أعربوا شاهدا أو رجحوا مذهبـا من جهة الاقتفاء الذهني ، لا من جهة محامل اللسان وتراكيبه ، فأصبحت صناعة العربيـة كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل ،وبعدت عن مناحي اللسان وملكته "[19].

ثم يبين السبب الذي أدى إلى الابتعاد عن ملكة اللسان ، وعدم تحصيلها في هذه الأمصار فيقول : " وما ذلك إلا لعدولهم عن البحث في شواهد اللسان وتراكيبه ،

وتمييز أساليبه ، وغفلتهم عن المران في ذلك للمتعلم ، فهذا أحسن ما تفيده الملكة في اللسان . وتلك القوانين ، إنما هي وسائل للتعليم ؛ لكنهم أجروها على غير ما قصد بها ، وأصاروها علما بحث ، وبعدوا عن ثمرتها ."[20]

فالقوانين النحوية والصرفية وغيرها التي تدخل في علوم اللسان ، هي وسيلة فقط وليست غاية لطالب الملكة اللسانية ، إذ لا يمكن أن نعتمد على القوانين بمعزل عن التراكيب والجمل والنصوص لامتلاك اللغة ، وهذا ما يبينه الواقع في عصره أيضا . فلسان أهل الأندلس أقرب إلى اللسان المضري من غيره ، ويرجع ذلك ـ في رأيه ـ إلى الطريقة المتبعة في تعلم وتعليم قوانين العربية ، فبين أنه قد حصلت لهم ملكة اللغة بفضل الاستعمال اللغوي ، وتمرين اللسان على الكلام ، فطبقوا قوانين النحو في استعمالهم للتراكيب والجمل ، فأصل النحو لديهم وسيلة للتمرين على النصوص لا غاية في حد ذاتها [21]. يقول ابن خلدون : " وأهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها أقرب إلى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم ، لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم ، والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس تعليمهم ، فيسبق إلى المبتدئ كثير من الملكة أثناء التعليم ، فتنقطع النفس لها ، وتستعد إلى تحصيلها وقبولها " [22] .

مما سبق يتبين لنا أن نظرة ابن خلدون إلى " علم صناعة العربية " ، نظرة علمية [23] ، مؤسسة على العقل والواقع والتجربة . لا عن هوى ! .

فابن خلدون يخلص إلى نتيجة ، هي أنه من يروم امتلاك اللسان المضري ، عليه أن يعيش مع ما خلفه هذا اللسان من موروث ، بأن يتغمده بالحفظ والفهم والإنشاء على منواله ، إذ القوانين مبثوثة في النصوص ، والعقل البشري المزود بالاستعدادات هو الذي يستخلصها ، ويكوّن لها منوالا ينسج عليه ؛ أي هو الذي يصوغ لنفسه نظاما نحويا داخليا (البنية العميقة) ، فمفهومه للنحو يختلف كثيرا عن أغلب التعريفات المتداولة ، فهو يرى أن " النحو " هو الملكة اللغوية التي يكتسبها الفرد عن طريق الاستماع والحفظ والفهم لأصوات اللغة

وصرفها وتركيبها ، من خلال انتمائه لمجتمع اللغة ومعايشته لهـا وممارسة التعبير بها [24] وهذا الفهم للنحو لم ينشأ من فراغ ، أو يتخذ مـن أجـل مخالفـة المتعارف عليه عند أغلب العلماء ، وإنما هو استجابة لفهم اللغة ملكة اللسان وطبيعتها . وكذلك حركيتها عبر التاريخ "فحصول العربي على اللغة إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العـرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه " [25] ، فما استنبطه النحاة من قالب للغة ، قد يتكون للذي يعيش مع كلام العرب ، ويرتسم في ذهنه دون أن يعرف اصطلاحاتهم .

إن ابن خلدون انتقد التجريد في اللغة وفي العلوم التطبيقية عامة بشدة ، فاللغة عنـده ظاهرة اجتماعية يستعملها المثقف والصعلوك والناسك والعابد والعالم والإداري و الفـلاح والمجرم .. فإذا أصبحت نظريات تجريدية منفصلة عن تطبيقاتها الاجتماعية فمعنى ذلك أنهـا انعزلت عن أغلبية الجماهير واتخذت لنفسها مقعدا في زاوية مظلمة حيث تنقطع عن الناس وتتراكم عليها القرون وهي جاثمة في مكانها لا تبرحه ولا تتفاعل مع الحيـاة الصاخبـة حولها [26].

فالخلاصة أن ابن خلدون يرى أن صناعة العربية غير الملكة ، وهي مستغنية عنها جملة ، وهذا ما يطابق نشدانه المجتمع اللغوي الافتراضي الذي تكتسب منه الناشئة اللغة .

ولكن ؛ هل نفهم من هذا أن ابن خلدون يرفض النحو جملة ، وهو الذي يعتـبره في مقدمة علوم العربية ؟ وإذا كان اهتمامه بالعلوم النظرية واضح في فصول مقدمته لغـرض تحصيل الملكات ، فهل النحو خارج عن هذه النظرية ؟ أم أن هناك أمورا وأسبابا دعته إلى هذا الاستنتاج ؟.

ابن خلدون يميز بين العناية باللغة والعناية بقواعدها [27]:

للإجابة على السؤال السابق ينبغي ألا نسلم أن ابن خلدون قد سلمت نظريتـه مـن العيوب ، وإنما يمكن أن نأخذ عليه مثلا اعتباره تعليم قواعد اللغة من المواد الثانوية الــتي يمكن الاستغناء عنها ، أو في الأقل عدم الإلحاح عليها لأن النحو من العلوم الوسائل الــتي لا توسع فيها الأنظار ، وليست من العلوم الغايات ؛ ولكن هذا المأخذ يفقد قيمته عنــد التعمق في فحص آراء ابن خلدون من قضية تعلم اللغة واكتسبها (والفرق جلي بينها) .

إن ابن خلدون لم يزهد في تعلم اللغة ، بل في تعلم قواعدها ، وبالعكس من ذلك حـرص كل الحرص على أن نتعلم اللغة من المجتمع لا من القواعد ، والمجتمع إذا كان سليما في لغته فإن التعلم منه يكون تلقائيا ، كما هو الحال في المجتمع العربي قبل الاختلاط ، أما إذا فقد اللغة السليمة من التداول في المجتمع فيجب أن نبقى محافظين على تعلم اللغة حتى في هــذه الحالة من المجتمع لا من القواعد ، من مجتمع مصطنع ، وهو مجتمع النصــوص الشــعرية والنثرية وحفظها حتى تتنزل منزلة المحيط الاجتماعي ، وتصبح هي التي يأخذ منها الطفـل حدسه اللغوي ، ويكوّن لنفسه المنوال الذهني الذي ينتج من خلاله الكلام ، لا من القواعـد الصماء التي عمد إليها المعلمون للوصول إلى نفس الغاية ، والتي تبين أنها تحولت إلى غايـة في حد ذاتها ، وبقيت اللغة غريبة عن متعلمها وهو غريب عنها .

ابن خلدون و جوهر خلافه مع النحاة :

تبين لنا أن ابن خلدون بنظرته الاجتماعية للغة يميز بين قواعد اللغو وتعلم اللغـة ، واكتساب اللغة ، و ذكرنا سابقا الأدلة التي رسمها ابن خلدون حول التغاير الموجود بين صناعة العربية والملكـة اللغوية ، وبين أن علماء اللغة العربية لم يتفطنوا إلى الهوة التي تكونت بين اللغة الاجتماعية واللغة الفنية ، وما زاد في هذه الهوة الاختلاط بين الفصيحة وبين اللهجات الهجينـة ، وإيجـاد القواعد

التي صارت غاية لا وسيلة . الأمر الذي أدى إلى أن تفقد اللغة من المجتمـــع ، ليـــس من الجماهير فحسب ولكن حتى عند المتعلمين لها أيضا لأنهم لم يتداولوها ، ويشـبههم ابن خلدون بمن يتعلم النجارة والحدادة والخياطة قولا وتحليلا لا عملا وتطبيقا ، وقد وضح عبد شريط في أطروحته ذلك ، وكذلك عبد الله عنان في تحقيقه للمقدمة .

يرى ابن خلدون أن حركات الإعراب أساسية في اللغة وهي المسؤولة الأولى على التمييز بين اللغة الفصيحة ولغة المجتمع ؛ ولكن النحاة أفرطوا في العناية بها على حساب التـداول اللغوي ، والانغماس اللغوي، والحدس اللغوي ، فقيمة اللغة لا تنحصـر في حركـات الإعراب ، واهتمام النحاة بهذا الجانب ليس دليلا على أن قيمة لغة مضـــر منحصـــرة في أواخر الكلم فقط ، وإنما ذلك دليل فقط على أن النحاة مثلهم مثل المحترفين في أي شـيء يركز كل منهم على ما يتقن ، لأن قيمة العالم فيما يحترفه ، ومن ثم " يجب ألا نلتفت إلى خرفشتهم لقصر مداركهم عن التحقيق بزعم أن اللسان العربي فسد ، اعتبارا بما وقـع في أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه ، وهي مقالة دسـها التشيـع في طباعهم ، وألقاها القصور في أفئدتهم ، وإلا فنحن نجد اليوم ألفاظ العـــرب لم تـزل في موضوعاتها الأولى ، والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الإبانة موجود في كلامـــهم لهذا العهد ، وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم ، وفيـــهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم ، و الشاعر المفلق على أساليب لغتهم، والـذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك ، ولم يفقد من أحـوال اللسـان إلا حركـات الإعراب في أواخر الكلم فقط [28]، الذي لزم في لسان مضر طريقة واحدة و مهيعا معروفـا وهو الإعراب ، وهو بعض من أحكام اللسان ، وإنما وقعت العناية بلسان مضر لما

فسـد ، لمخالطتهم الأعاجم ، وصارت ملكته على غير الصورة الـتي كـانت أولا فـانقلب لغـة أخرى "[29].

والواقع أننا نصطدم هنا بشيء من التناقض في كلام ابن خلدون : فهو من ناحية يحدثنـا عن فساد لغة مضر بالاختلاط مع الأعاجم شرقا وغربا . ومن ناحية يؤاخذ النحاة على زعمهم بأن اللغة قد فسدت بمجرد ما وقع في أواخر الكلم من عدم مراعاة القوانــين النحوية التي يتدارسونها ، فهل هناك فرق بين الفساد الذي يعنيه هو بالاختلاط والفســاد الذي يعنيه النحاة والمتعلق بأواخر الكلم ؟ أم أن ابن خلدون لا يعترف بما يسميـه غــيره فسادا ، إذا لم يتطابق مع ما يسميه هو بنفس الاسم ؟ أم أن الخلاف بينهم وبينه خــلاف في الأسماء لا في المسميات ؟[30].

إن هذه الإشكالية وجيهة وجديرة بالبحث وقد لاقت في اللسانيات الحديثة إجابـات متعددة ، وكذلك الأمر بالنسبة لعلم الاجتماع اللغوي .

إن الخلاف بين ابن خلدون والنحاة هو خلاف بين العالم الاجتماعي والعالم اللغـوي ، بين من ينظر إلى المشكلة اللغوية من الوجهة الحضارية ، وبين من ينظر إليها من الوجهــة الفنية ، بين من يعالج اللغة بوصفها ظاهرة إنسانية معقدة ، ومن يعالجها بوصفها مشـكلة تقنية بحتة ، وأخيرا هو خلاف بين من ينظر إلى اللغة من خارجها ، ومن ينظر إليها مـن داخلها [31].

أما الفساد الذي يقصده ابن خلدون فهو ينسجم مع ما تنزع إليه نفســه في بحوثـه الحضارية والاجتماعية ، فهو ناتج عن الاختلاط ، وليس محصورا في قضيــة الإعــراب وأواخر الكلم ، فالكلام أعقد من أن يتناول قواعد الإعراب وحدها .. إن النظرة إلى اللغـة محصورة في قواعد الإعراب ، تفسد بفساده وتصلح بصلاحه هي نظرة في غاية القصور .

ولا شك أن هذا القصور ناتج عن اكتفاء النحاة بلغة القواعد المسجونة في الكتب وحلقات الدرس ، وإهمالهم للغة المجتمع . وأدى ذلك إلى تقسيم المجتمع إلى أقسام متعددة وهذا ما لا يعترف به ابن خلدون ، بل إن الثقافة التي يدعيها أصحـــاب لغـة القواعـد لأنفسهم لمجرد معرفتهم بهذه القواعد يردها ابن خلدون نفسه ، ويعتبر أنه يوجـــد فيمـــن تعلموا اللغة عن طريق المجتمع مباشرة خطباء وشعراء وكتابا وهم أقدر على التعبير البليـغ ممن حشوا رؤوسهم بالقواعد ولكنهم ظلوا عاجزين عن التعبير البسيط .

وربما هذا هو السبب الذي جعل أحد الباحثين المعاصرين يقسم النحو إلى قسمين : النحو الوظيفي والنحو التخصصي [32] . ويعني بالنحو الوظيفي " مجموعة القواعـد الـتي تـؤدي الوظيفة الأساسية للنحو ، وهي ضبط الكلمات ، ونظام تأليف الجمل ، ليسلم اللسـان من الخطأ في النطق ، والقلم من الخطأ في الكتابة " ، أما النحو التخصصي ، " فهو ما يتجـاوز ذلك من المسائل المتشبعة والبحوث الدقيقة التي حفلت بها الكتب الواسعة " [33] ، وبهـــذا التقسيم المنهجي " يمكن أن نعتبر النحو فنا وعلما في نفس الوقت " [34] فنا من حيث أنـــه وسيلة تعين المتعلم على التعبير الصحيح وضبط الأساليب ، وتفهم الكلام تفهما واضحـا ، وعلى هذا الاعتبار يجب أن يكون تعليمه غير مقصود لذاته ، بل ينبغي أن يكـون ثانويـــا أمام النص والتمرن عليه على وفق ما يرى ابن خلدون ؛ أما كونه علما قائمـا بنفســـه ، فذلك يكون إذا قصد لذاته ، وروعي تدريسه تمكين المتعلم من فلسفته ومباحثه ، وعلـــى هذا الأساس لا يكون بمقدور التلاميذ ـ ولا سيما الصغار منهم ـ إدراكا تاما .

ولا تفوتنا في هذا الإطار الإشارة إلى ما جاءت به النظرية الخليلية [35] الحديثة [36] فيما يتعلق بإكساب المتعلم الملكة اللغوية النحوية ، والتبليغية على حد سواء ، فاللسان كما يحـــدده أ . د عبد الرحمن الحاج صالح هو : " وضع

واستعمال أي نظام من الأدلة الموضوعــة لغــرض التبليــغ ، واستعمال فعلي لهذا النظام في واقع الخطاب " [37] .

فاللسان إذن نظام من الأدلة واستثمار هذه الأدلة في واقع الخطاب اليومي ، لهذا يكون من الضروري في عملية التعليم الاعتناء بالنحو والبلاغة معا ، ويقصد بالنحو مــا ورد في قول الأستاذ : " فالنحو كهيكل للغة _ وهو بذلك صورتها وبنيتها _ " [38] . فالتركيز علــى اكتساب الملكة اللغوية النحوية يتم عن طريق إحكام المتعلم التصرف في مختلــف البـنى اللغوية في تفريع الفروع من الأصول وذلك على شكل أنماط معينة ، إلا أن هذه الملكــة اللغوية النحوية لا تكفي ولهذا لابد من الاعتناء بالبلاغة ، ويقصد من البلاغـة هنـا مــا في معنى الأستاذ : " كيفية استعمال المتكلم للغة والنحو فيما هو مخير فيه لتأدية غرض معيــن ، هي بهذا امتداد للنحو " [39] . ويهدف اكتساب المتعلم القواعد النحوية والبلاغية لاستعمالها في واقع الخطاب . **وهذا يؤدي إلى التمييز بين النحو العلمي والنحو التعليمي من جهة** ، وبين الدراسة النظرية لظواهر البلاغة والدراسة التطبيقية لها ، وإن كان وجود أحدهمـا يفترض وجود الآخر .

ومن هذا يتبين لنا المراد من نقد ابن خلدون للنحو في زمانه ، وللنحاة وطرقـهم في التعليم ، لا سيما أولئك الذين اتخذوا قوانين العربية صناعة في حد ذاتها للحصـول علــى ملكة اللغة ، مع إهمال الناحية العملية .

هوامش البحث:

---

[1] إشارة إلى تعريف ابن جني للنحو .

[2] محمد عيد (د) : الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون (القاهرة : عالم الكتــب ، د . ط ، ١٩٧١ م) . ص : ١٣٥ .

[3] ينظر : د . محمد إبراهيم عبادة ، النحو التعليمي في التراث العربي (الإسكندرية : منشأ المعارف ، جلال حــزي وشركاؤه ، د . ط ، . ت) المقدمة .

[4] جلال الدين السيوطي : الاقتراح في علم أصول النحو ، تح : محمد حسن محمد إسماعيل الشافعي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط : ١ ، ١٩٩٨ م) .ص : 4 ابن جني عثمان : الخصائص : تحقيق محمد علي النجار (بيروت : دار الهدى ، ب . ت) . ج : ١ ، ص : ٣٤.

[5] ينظر : د . صابر بكر أبو السعود ، في نقد النحو العربي (دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٨ م) فقد جمع فيه انتقادات المتقدمين والمتأخرين للنحو العربي منذ نشأته . وقد فصلت القول في هذا سابقا.

[6] سمر روحي الفيصل : المشكلة اللغوية العربية (طرابلس ـ لبنان : مط . جرس برس ، ط : ١ ، ١٩٨٣ م) .ص : ٥٦ .

[7] عبده الراجحي (د) : النحو العربي والدرس الحديث ـ بحث في المنهج ـ (بيروت : دار النهضة العربية ، د . ط ، ١٩٨٦ م) . ص :١٠ ـ ١١ . يراجع المقدمة ، ص : ٧٥٣ .

[8] هذا في عصره !

[9] ابن خلدون ، المقدمة ، ص : ٧٧٦ .

[10] نقصد بالنحو هنا : العلم المعروف لدى الجميع ، لكنن يمكن الأشارة إلى أن " النحو " أو ما يسمى بمجموعة نماذج الجمل مثل : " دخل سعيد جملة فعلية " وغيرها من القوالب التركيبية هي التي تنتج الكلام ، فالأمثلة التطبيقية الناتجة عن هذا القالب النحوي هي الكلام ، فالارتباط بينهما واضح ، فالفرق يكمن في الدرجة (البنية السطحية والبنية العميقة).

[11] نقصد به النحو العلمي المعياري (علم صناعة الإعراب) أو النحو التخصصي .

[12] ليس على الإطلاق ؛ بل بإمكان النحو أن يساعد المتعلم على اكتساب الجمل الأساسية ، التي تمثل القالب الذهني (المنوال) ، وهو الذي يسميه المحدثون بالنحو الوظيفي ، أو النحو الأساسي ، ينظر : د . نايف معروف ، النحو الوظيفي دراسة و تطبيق (بيروت ، دار بيروت المحروسة ، ط : ٢ ، ١٩٩٤) د . أحمد مختار عمر ، د. مصطفى النحاس زهران ، د . محمد حماسة عبد اللطيف : النحو الأساسي (الكويت ، دار السلاسل للطباعة والنشر ، ط : ١ ، ١٩٩٤) وإن كان ابن خلدون يفضل تحصيلها بالاستعمال المتتابع للكلام ، سمعا وحفظا وفهما وتعبيرا ، إلا أنه لا يهمل جانب القواعد الوظيفية.

[13] ابن خلدون ، المقدمة ، ص : ٧٧٦ .

[14] المرجع نفسه ، ص : ٧٧٦ .

[15] المرجع نفسه ، ص : ٧٧٦ .

[16] على حد ما يرى السيوطي في كتابه " بغية الوعاة " : " أن رجلا قال لابن خالويه : أريد أن تعلمني من النحو ما أقيم به لساني ، فقال له ابن خالويه : أنا منذ خمسين سنة، ما تعلمت ما أقيم به لساني " د . علي أحمد مدكور ، تدريس فنون اللغة العربية ، ص : ٣٢٤ . وما يروى في هذا كثير ، للاستزادة ينظر : د . صابر بكر أبو السعود ، في نقد النحو العربي ، ص : ١٠ وما بعدها . الجاحظ ، الحيوان ، ج : ١ ، ص : ٩١ وما بعدها .

[17] ابن خلدون ، المقدمة ، ص : ٧٧٧ .

[18] المرجع نفسه ، ص : ٧٧٧ .

[19] م . ن ، ص : ٧٧٨ .

[20] م . ن ، ص : ٧٧٨ .

[21] ينظر : حسين بن زروق ، النظريات العربية حول حصول ملكة اللغة ، ص : ١٨٩.

[22] ابن خلدون ، م . س ، ص : ٧٧٨ .

[23] هذه النظرة قابلة للمناقشة بشكل واسع جدا ، إذ لا زالت الآراء العلمية والدراسات التجريبية في العالم العربي ، وكذلك العالم اللغوي ، متضاربة في هذا المجال .

[24] يقارن مع ما قاله تشومسكي حين تكلم عن مصطلح " Competence" وعرفه بأنه المعرفة اللغوية التي يمتلكها ابن اللغة (المتكلم والسامع) للغة الأم . ينظر : Chomsky , N , Aspect of the Theory of Syntax , MIT Press , 1965 p . 4، نقلا عن : د . محمد علي الملا ، منهج طبيعي تكاملي ، مجلة كلية الآداب : ص : ٣٢٠

[25] حسين بن زروق ، النظريات العربية حول حصول ملكة اللغة ، مجلة اللغة والأدب (الجزائر : جامعة الجزائر ، معهد اللغة والأدب ، ع : ٥ ، ١٩٨٥ م) ، ص : ١٥١.

[26] عبد الله شريط : الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون ، (الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط : ٢ ، ١٩٧٥ م) . ص : ٥٨٩.

[27] عبد الله شريط : الفكر الأخلاقي ، ص : ٦٧٠ بتصرف .

[28] وهذه مبالغة في قوله بالنظر إلى واقع عصرنا اللغوي .

[29] ابن خلدون : المقدمة ، ص : 770

[30] عبد الله شريط : الفكر الأخلاقي ، ص : ٥٩٦.

[31] م . ن ، ص : ٠٥٩٧

[32] عبد العليم إبراهيم ، النحو الوظيفي ، (القاهرة : دار المعارف ، ط : 4 ، د . ت) المقدمة .

[33] ينظر : د . صابر بكر أبو السعود ، في نقد النحو العربي ، ص : 43 .

[34] محمد صالح سمك ، م . س ، ص : ٥١٤ .

[35] نسبة إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي ، المتوفي سنة ١٧٥ هـ ، كان عقله من العقول الخصبة النادرة ، أتقن العلـــوم الرياضية علما وفقها وتحليلا ، والتي استغلها في وضع منهج قويم لمعجم العين أول قاموس للغة العربية ، مكتشـــف لعلم العروض الذي استطاع أن يرسمه بكل أوزانه وحدوده وتفاعيله وتفاريعه ، اكتشف قوانين العربية في النحـــو والتصريف ، واعتمد في تأصيله لقواعد النحو على السماع والتعليل والقياس .سميت بالنظرية الخليلية بالتغليب ، لأن الخليل ـ رحمه الله ـ وإن كان هو العماد فيها إلا أنه قد أخذ عـــنه كثيرا من شيوخيه ، وسيبويه أثرى هذه النظرية هو ومن جاء بعده ، كالأخفش والمازني ولا سيما مدرسة ابن السراج : مثـــل أبي علي والروماني والسيرافي والزجاجي ، ثم ابن جني وبعدهم بكثير الضي الاسترابادي .. عن مقال الأستاذ عبـــد الرحمان الحاج صالح " الأصالة والبحوث اللغوية الحديثة " حوليات جامعة الجزائر ، ع : ٦ ١٩٩٢ ، ج : ١ ، ص : ٣٣ ـ ٤١ .

[36] هي نظرية لسانية حديثة عربية معاصرة ، نتجت عن جهود متواصلة ، وعن إعمال الفكر في النظريـــة الخليليـــة القديمة ، وقد أمضى صاحبها الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح سنوات طويلة من الجهد المتواصـــل لإخراجـــها إلى الوجود . أما عن الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها أصحاب هذه النظرية ، هي ضرورة الرجوع إلى التراث العلمـــي اللغوي الأصيل ، والنظر فيما تركه الأوائل المبدعون ، وتفهم ما قالوه لفهم الأسرار اللغوية ، والتمكن من إجـــراء مقارنة نزيهة بين نظرية النحاة العرب الأولون وبين النظريات اللسانية الحديثة التي ظهرت في العالم الغربي .

[37] عبد الرحمان الحاج صالح : تعليم اللغة العربية في التعليم الأساسي وإمكانية استفادته من البحوث العلمية الحديثة ، مقال (أخذ من محاضراته).

[38] عبد الرحمان الحاج صالح : الأسس العلمية واللغوية لبناء مناهج اللغة العربية في التعليم ما قبل الجامعي ، ص : ٢٥.

[39] المرجع نفسه .